أثر المرجعية الاجتماعية في التواصل بين النحويين والمتلقين

"التمثيل النحوي عند ابن مالك الأندلسي أنموذجا"

د. علي نجار محمد حسن

أستاذ النحو والصرف المشارك ـ قسم اللغة العربية ـ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ جامعة جازان
المملكة العربية السعودية

أثر المرجعية الاجتماعية في التواصل بين النحويين والمتلقين "التمثيل النحوي عند ابن مالك الأندلسي أنموذجا"

علي نجار محمد حسن
أستاذ، قسم اللغة العربية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة جازان، المملكة العربية السعودية.
البريد الإلكتروني: amohammed1@jazanu.edu.sa

ملخص البحث

يطرح هذا البحث في صحائفه نوعا مُغْفَلا من قبل الباحثين في التواصل بين النحويين وقارئيهم؛ إذ يركز على الجانب الاجتماعي في التمثيل النحوي، وأثره في ذلك التواصل المنشودِ بين الجانبين، ويتخذ التمثيلَ النحويَّ عند عَلَمٍ من أعلام النحو العربي أنموذجا لهذا الطرح؛ إنه العلامة ابن مالك الأندلسي (٦٠٠ ـ ٦٧٢هـ)؛ ذلكم النحويُّ العبقريُّ الذي على الرغم من تأخره زمنيا إلا أنه يُصَنَّفُ على رأس القمة الثانية في النحو العربي بعد القمة الأولى التي كان على رأسها سيبويه (ت ١٨٠هـ) . رحمه الله ..

ويعتمد البحث على المنهج الوصفيِّ التحليليِّ، منتظما في خطة قوامها مقدمةٌ، ومدخلٌ، وثمانية آثار تواصلية مترتبة على المرجعية الاجتماعية، ثم خاتمة بها نتائجه التي من أهمها: حصر سمات التمثيل النحوي عند ابن مالك، مع محاولة الوصول إلى ثواني المعاني والرمزية التي تواصل بها مع متلقيه.

كلمات مفتاحية:

المرجعية الاجتماعية ـ التواصل بين النحويين والمتلقين ـ التمثيل النحوي ـ معالم بيئة ابن مالك – الدعوة إلى الاستقرار – الحث على الكرم – احترام المواعيد – رفع الروح المعنوية.

The effect of social reference on communication between grammar and recipients "Grammatical Representation of Ibn Malik Al-Andalusia as a Model"

Ali Najjar Muhammad Hassan
Professor, Department of Arabic Language, College of Arts and Humanities, Jazan University, Saudi Arabia.
Email: amohammed1@jazanu.edu.sa

Abstract: The present paper explores one of the hidden issues ignored by researchers in communication between grammarians and their readers. The paper will focus on the social side in grammar representation and its effect in this desired communication between both sides. It will deal with one of the main intelligent figures of Arabic grammar, Ibn Malek Al Andalosi (600- 672 H.) Al-Andalosi is considered to be on the head of the second top in Arabic grammar after the first rank headed by late Sībawayh (died 180 H.)

The research will adopt the analytical thematic approach including introduction, eight impacts based on social background, then a conclusion with results and finally a list of primary and secondary sources consulted.

Key words:
Social reference - communication between grammar and recipients - grammatical representation - Features of Ibn Malik's environment - calling for stability - urging generosity - respecting deadlines - raising morale.

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله واهبِ العقول، وصلاةً وسلامًا دائمينِ متلازمينِ على سيدنا محمد الهادي البشير ـ ﷺ ..

وبعد ...

فقد جُرْنا نحن الباحثين النحويين على النحو حين وقَفْناه في جزء كبير من بحوثنا على الخلاف النحوي، والاختيارات، والاعتراضات، ...، والوقوف في دائرة بحثية مغلقة، لا تتجاوز النحو علمَ آلةٍ أو مقوما للألسنة.

لقد ظَلَمْنا النحوَ حين قدمناه للناس على أنه عِلْمٌ جافٌّ لا يعرف غير لغة القواعد الجامدة، وكأننا أردنا أن نقصر مفاتيح خزائنه علينا نحن المختصين حتى نتحكم فيها، ولا يملك مصابيح نوره أحد سوانا.

والحقيقة هي أن النحو ـ لمن أنعم النظر ـ علمٌ واسعُ الاتجاهات، عديدُ الجوانب، يخاطب متلقيه بألسنة متشعبة، ولغات متنوعة؛ ومعانٍ متدفِّقة؛ فقواعده تكلم الناس بلغة خاصة، وتقسيمات أبوابه تَنتهج خطابا عقليًّا قويما، وشواهده تقتصر من اللغة على الفصيح، وألغازه تشدو بلغة تبدو في كل لغز محتاجةً إلى سليمانِ زمانِه لفهمها وتفهيمها، ... وأمثلته تحمل من قِبَل النابهين من أهله رسائلَ تربويةً؛ من إشارات دينية، وأحوال اجتماعية، ومعالم بيئية تصور بيئة النحويّ لقارئيه ومتلقيه؛ ولا عجب فالنحو هو العلم المستطيل، والباحث يرى أن استطالته لا تتوقف عند حدود أن الكلامَ بِهِ يَكْمُل، وَالخطابَ بِهِ يَجْمُل، أو أن جميع العلوم مفتقرةٌ إليه فقط، بل إن من استطالته أيضا ذلك التواصل العميق الدقيق بين مؤلِّفيه ومُتلقِّيه من حيث ثقافة الجانبين التي تتجلى في جوانبَ كثيرةٍ؛ منها أمثلةُ المؤلِّف وقراءةُ المتلقي.

وهذا البحث يطرح في صحائفه نوعا مُغْفَلا من قبل الباحثين في التواصل بين النحويين وقارئيهم؛ إذ يركز على الجانب الاجتماعي في التمثيل النحوي،

وأثره في ذلك التواصل المنشودِ بين الجانبين، ويتخذ التمثيلَ النحويَّ عند عَلَمٍ من أعلام النحو العربي أنموذجا لهذا الطرح؛ إنه العلامة ابن مالك الأندلسي (٦٠٠ ـ ٦٧٢هـ)؛ ذلكم النحويُّ العبقريُّ الذي على الرغم من تأخره زمنيا إلا أنه يُصَنَّفُ على رأس القمة الثانية في النحو العربي بعد القمة الأولى التي على رأسها سيبويه (ت ١٨٠هـ) . رحمه الله ..

ويعتمد البحث على المنهج الوصفيِّ التحليليِّ، منتظما في خطة قوامها مقدمةٌ، ومدخلٌ، وثمانية آثار تواصلية مترتبة على المرجعية الاجتماعية، ثم خاتمة بها أهم نتائجه، وأخيرا المصادر والمراجع التي استقى منها مادتَه.

وعلى اللّه قَصْدُ السَّبيل!

مدخل:

إنّ الناسَ أشبهُ ما يكونون في تلقي العلومِ بالأرض التي يُصيبها الغيثُ؛" فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً "(١)، والعلاّمة ابن مالك ـ رحمه الله ـ من تلك الطائفة الطيبة؛ تلقَّى العلم، واجتهد فيه، وأطال النظر؛ حتى صار ذا نسَقٍ خاصٍّ في نظمه وشرحه للنحو العربي؛ فهو" حُجّةُ العلماء، قدوة البلغاء، إمام القراء والنحاة والأدباء، ومؤلفاته قل أن تسمح بمثلها القرائح أو تطمح إلى النسج على منوالها المطامح، بهرتْ مصنفاته الألباب، إذ أتى فيها بالعجب العجاب، وأبرز مخبآت المسائل بِيْضَ الوجوه، كريمةَ الأحساب، أبدع فيها التأليف، ووشَّاها بحسن الترصيع والترصيف، وجمع فيها متفرقات علم النحو الشريف؛ فرتب قواعده، وأحكم معاقده، وأوضح مراشده، وسهل مصادره وموارده، وأودع المعاني العزيزة الألفاظَ الوجيزة، وقرَّب المقاصدَ البعيدة بالأقوال السديدة"(٢)؛ فكأنما " ضَنَّ النحوُ بعد سيبويه بمقاليد خزائنه

(١) هذا جزء من حديث نبوي شريف متفق عليه؛ ينظر: صحيح البخاري؛ الحديث رَقْم ٧٩، وصحيح مسلم؛ الحديث رَقْم ٢٢٨٢. والحديث بتمامه:" إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ ـ ﷻ ـ مِنَ الْهُدَى، وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ، قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً، وَلَا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِيَ اللهُ بِهِ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ".

(٢) ينظر: تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد؛ المؤلف: محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش (المتوفى: ٧٧٨ هـ)، دراسة وتحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرين ـ الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة ــ جمهورية مصر العربية ــ الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ؛١/١٠٨ بتصرف.

ليسلمها لابن مالك في القرن السابع؛ حتى يفتح بها هذه الخزائن النفيسة؛ ليستخرج ما فيها من كنوز غالية. وهي كنوز لم تُتِحْها مقاليد سيبويه للناس كما أتاحتها مقاليد ابن مالك، وإذا كانت أهمية سيبويه ترجع إلى أنه هو الذي سجَّل قواعد النحو العربي، وخطا بها الخطوة الأولى التي حددت معالمه ورسمت اتجاهاته؛ فإن أهمية ابن مالك ترجع إلى أنه هو الذي قام بأكبر عملية تصفية تمت في تاريخ هذا النحو، وخطا به الخطوة الأخيرة التي استقرَّ بعدها في صورته الثانية إلى اليوم"[(١)].

ومن البدائع التي يَلْحَظُها القارئُ عند ابن مالك ـ رحمه الله ـ ذلك النَّسَقُ المبهر في التمثيل للقواعد النحوية التي يشرحها للمتلقين؛ إذ إنه يأتي بأمثلة تحمل مرجعياتٍ متنوعةً؛ من أبرزها المرجعية الاجتماعية بما تَرْمُزُ إليه من مظاهر اجتماعية متعددة عاشها ابن مالك؛ مما جعله يُعبِّر عن تلك المظاهر في أمثلته داعيا القرَّاء إلى ما يراه مصلحا لفاسد، أو مؤيدا لصالح؛ وبذلك يصنع ابن مالك تواصلا خاصًّا بينه وبين قارئيه من طلاب العلم وأهله.

وهذه الظاهرة من التمثيل النحوي لا تكاد تجدها عند غيره من النحويين قبله وبعده إلا ما نَدَر وجوده منها؛ ولعل في هذه الخصائص الآتية التي برزَتْ في أمثلة ابن مالك ـ ما يُدلّلُ على قولنا ذلك:

الخصيصة الأولى:

لم يَعِش ابن مالك في جلباب من سبقوه؛ إذ إنه ينوع في أسماء الأعلام التي يمثِّل بها خارجا عن دائرة: ضرب زيدٌ عمرًا، وقام زيدٌ وقعد عمرٌو.

وقد عاش القدماء قانعين بهذه الأسماء في أمثلتهم إلا ما ندر، وصار (زيد وعمرو) رمزًا لعلم النحو؛ حتى أن العلامة النحويَّ الكوفيَّ أَبا الْعَبَّاس أَحْمَد

(١) من تقديمٍ للدكتور/ يوسف خليف، قدم به لنسخة شرح التسهيل التي حققها الدكتور/ محمد كامل بركات ـ الناشر: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر؛ سنة ١٣٨٧هـ – ١٩٦٧م، بتصرف.

ابْن يَحْيَى ثعلب (ت ٢٩١هـ) روى عنه المترجمون أنه قال لصاحبه أبي بكر بن مجاهد[١] :" يا أبا بكر، اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا، واشتغل أهل الفقه بالفقه ففازوا، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا، واشتغلت أنا بزيد وعمرو "[٢].

وأما ابن مالك فمن أمثلته خلاف زيد وعمرو ما يأتي:

يقول في باب (كان وأخواتها): صار بِشْرٌ سَمْحًا[٣].

ويقول في باب (عطف النسق): أَقصِدُ محمدا لا بشرا[٤].

ويقول أيضا: أُكْرِمَ خالدٌ وأُهينَ بشرٌ[٥].

---

(١) هو ابن مجاهد المقرئ، صاحب: السبعة في القراءات. توفي سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وكان مولده سنة خمس وأربعين ومائتين ـ رحمه الله تعالى ـ. ينظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، المحقق: إحسان عباس ـ الناشر: دار صادر ـ بيروت ـ ١/٣٠١.

(٢) ينظر: تاريخ بغداد وذيوله؛ المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ) ـ الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ـ الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ؛ ٥/٤٢٠. ووفيات الأعيان ١/١٠٣.

(٣) ينظر: شرح الكافية الشافية؛ المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)، المحقق: عبد المنعم أحمد هريدي ـ الناشر: جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة ـ الطبعة الأولى؛ ١/٣٨٠.

(٤) المصدر السابق ٣/١٢٣١.

(٥) المصدر السابق نفسه.

ويقول في باب إعمال المصدر:" عجبتُ من ضربِ زيدٍ عمرًا أمسِ، ومن لقاءِ محمدٍ أحمدَ غدًا"(١).

ويقول في باب النعت: رأيتُ بِشْرًا وأبصرتُ محمدا الظريْفَيْنِ(٢).

ويقول في باب العطف: زُرْتُ محمدًا لا بشرًا، وجاء سعدٌ لا سعيدٌ(٣).

ويقول أيضا: اختصم زيدٌ وعمرٌو وسعدٌ وسعيدٌ حاضرانِ وصاحباي أحمد ومحمد(٤).

فابن مالك ينقل أسماءَ أعلام سائدةً في مجتمعه؛ مثل: (بِشْر، ومحمد، وأحمد، وخالد، وسعد، وسعيد) إلى أمثلته، ولا يكتفي بـ (زيد وعمرو).

ويندرج تحت هذه الخصيصة إضافة بعض الأمثلة التي تضاهي أمثلة تعارف عليها النحويون، ولم يفكروا في تغييرها؛ فمثلا يقول النحويون في باب المفعول معه: كلُّ رجلٍ وضيعتُه. وابن مالك يضيف إلى هذا: كلُّ ثوبٍ وقيمتُه(٥).

وفي باب تقديم الخبر يقولون: في الدار صاحبُها. فيقول ابن مالك مع ذلك: إنّ في الدار مالكَها(٦).

---

(١) ينظر: عمدة الحافظ وعُدَّة اللافظ؛ المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)، تحقيق/ عدنان عبد الرحمن الدوري ـ الناشر: مطبعة العاني ـ بغداد ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م؛ ٦٩٨/١ .

(٢) المصدر السابق ٥٤٥/١.

(٣) ينظر: عمدة الحافظ ٦٣٣/٢.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) المصدر السابق نفسه. وابن مالك ـ رحمه الله ـ ذكر هذين المثالين فيما خالف شروط شروط المفعول معه.

(٦) المصدر السابق ٢٢١/١.

الخصيصة الثانية:

ابن مالك يقصد أمثلته قصدا ويعيها وعيا، ولا يكتبها هكذا غفلا حسبما اتّفق؛ يقول في حديثه عن علامات الاسم وتمييزه بالنداء:" وفي تمثيلي: أَيَا مَكْرَمان ـ فائدتان:

إحداهما ـ أن (أيَا) لا تستعمل والمنادى محذوف، كما تستعمل (يا)؛ فبمجرد ذكرها يُعلَم أن الذي وليها اسم.

الأخرى ـ أن (مَكْرَمَان) من الأسماء الملازمة للنداء؛ فلا يصلح له من علامات الأسماء اللفظية إلا وقوعه بعد حرف مختص بالنداء؛ فكان التمثيل به أولى"(١).

ويقول في الباب ذاته ـ علامة الإسناد إلى الاسم ـ:" وفي تمثيلي بـ (أنا مؤمنٌ) دون غيره فائدتان:

إحداهما ـ أن (أنا) اسم، ولا يقبل من علامات الأسماء اللفظية القياسية إلا الإخبار عنه؛ إما بجعله مبتدأً مُخبَرًا عنه بما بعده؛ نحو: أنا مؤمنٌ. وإما بجعله فاعلا أو مفعولا نائبا عن فاعل؛ نحو: ما قام إلا أنا. وما قُصِد إلا أنا. فكان التمثيل به للعلامة الإخبارية أولى من التمثيل بـ (زيد) أو غيره مما له علامة أخرى.

والفائدة الثانية ـ أن في (مؤمن) ضميرا منويًّا هو فاعل (مؤمن)؛ فهو اسم؛ لأنه مخبَرٌ عنه"(٢).

الخصيصة الثالثة:

يُذيِّلُ أمثلته أحيانا معلقًا بتفسير وتوضيح؛ حتى لا يحدث لبسٌ أو إبهام.

يقول في مسألة حذف الفعل وجوبا: ومن الحذف الواجب: إيّاك والشر(٣).

---

(١) المصدر السابق ١/١٠١.

(٢) المصدر السابق ١/١٧٦.

(٣) المصدر السابق ١/١٩٣.

ويقول في باب التمييز: طابَ الزيدان أبوين. ثم يفسِّر قائلا:" إذا أردت: طاب أبواهما، أو طابتْ أبوتُهما لبَنِيهِما. فالإفراد في مثل هذين القصدينِ غير جائز؛ لأنه يوهم أن المقصود نسبةُ الطِّيْبِ(١) إلى أبيهما وأنه واحد"(٢).

ويقول في باب التوكيد: صمتُ شهرا كلَّه. ثم يعلق معللا لمن جوز ذلك التركيب قائلا:" لأن فيه فائدةً؛ وذلك أن قول القائل: (صمتُ شهرا) محتمل أربعة أمور:

أولها ـ أن يريد الظاهر، وهو جميع الشهر.

الثاني ـ أن يريد أكثر الشهر، وعبّر عنه باسم الجميع.

الثالث ـ أن يريد يوما أو يومين فغَلِطَ.

الرابع ـ أن يكون أراد الاستثناء ونسي.

فإذا ذكر (كلّه) تعيَّن المرادُ، وارتفعت الاحتمالات"(٣).

الخصيصة الرابعة:

ابن مالك ينحو في تمثيله للقاعدة النحوية أحيانا منحًى أشبهَ ما يكون بالقصة القصيرة جدًّا؛ فهو يقدِّم القاعدةَ بكل ما تحتويه من تقعيد؛ ثم يمثل لكل ذلك بمجموعة من الأمثلة المتوالية التي تكون معنى متكاملا في النهاية.

يقول ممثلا لعلامات إعراب اسم (لا) النافية للجنس من فتحة مع المفرد، وياء مع المثنى وجمع المذكر السالم، وكسرة مع جمع المؤنث السالم؛ يقول:" لا أحدَ أَخْيَبُ ممنْ لا يَدَيْنِ له بالمعروف، ولا حامدينَ له، ولا حامداتٍ"(٤).

---

(١) طابَ يَطيبُ طِيبًا فهو طَيِّبٌ. والطِّيبُ على بناء فِعْل، والطَّيِّبُ. نعت. ينظر: كتاب العين؛ المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ـ الناشر: دار ومكتبة الهلال؛ ٤٦١/٧.

(٢) عمدة الحافظ ٤٧٥/١.

(٣) عمدة الحافظ ٥٦٤/١.

(٤) المصدر السابق ٢٥٤/١، ٢٥٥.

ويقول في باب الإضافة ـ جرُّ المضاف إليه بالمضاف ـ:" ويُجَرُّ المضاف إليه بالمضاف؛ كقولك: يَعمُرُ أهلُ الخير مساجدَ الله طرفَي النهار، ويصومون إثني[١] الأسبوع وخميسَه، آمِّينَ مع أهليهم عِلِّيِي الجنة"[٢].

ويقول في باب المدح والذم:" حَسُنَ الخُلقُ خُلُقُ الحكماء، وعَظُمَ الكرمُ تقوى الأتقياء، وقَبُحَ العملُ عنادُ المبطلين، وسعفت[٣] الوجوه وجوه الكافرين"[٤].

والحقُّ أن هذا النَّمط من التمثيل قلما نجده عند غير العلامة ابن مالك، بل ربما لا نستطيع العثور عليه في غير كتبه ـ رحمه الله ..

الخصيصة الخامسة:

ابن مالك يشير في بعض أمثلته إلى بعض طلابه وخاصّته.

يقول في ألفيته العبقرية ـ فصل: مسوِّغات الابتداء بالنكرة [٥]:

ولا يجوزُ الابتدا بالنّكرةْ ... ما لم تُفِدْ كـ "عندَ زيدٍ نَمِرَةْ"

و"هل فتًى فيكم؟" فـ "ما خِلٌّ لنا" ... ورجلٌ من الكرامِ عندنا

---

(١) همزته قطع؛ لأنه عَلَمٌ على اليوم.

(٢) ينظر: عمدة الحافظ ٤٨٠/١.

(٣) سَعُفت يدُه وسَعِفت وَهُوَ التشعّث حول الْأَظْفَار والشُّقَاق؛ فـ (سعفت): تشقَّقَت. ينظر: تهذيب اللغة؛ المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب ـ الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ٢٠٠١م؛ ٦٧/٢.

(٤) ينظر: عمدة الحافظ ٧٩٨/٢، ٧٩٩.

(٥) ينظر: متن ألفية ابن مالك، ضبطها وعلق عليها الدكتور/ عبد اللطيف بن محمد الخطيب ـ توزيع مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م؛ ص ٨، ٩؛ البيتان رقم ١٢٥،١٢٦.

يقول الفاسيُّ[١] ـ رحمه الله ـ:" وأما النووي فأحد أصحاب ابن مالك الذين أخذوا عنه؛ ولذلك تجد النووي في تصانيفه كثيرا ما يقول: قال شيخُنا ابنُ مالك. وقد سمعت من جماعة من أشياخنا أن النووي هو المراد بقول ابن مالك في الخلاصة:" ... ورجلٌ من الكرامِ عندنا "؛ لأنه كان ضيفَه في تلك الليلة"[٢].

الخصيصة السادسة:

ابن مالك لا يمثل للقاعدة أحيانا؛ اعتمادا على شدة ظهورها وكثرة الاستخدام. يقول في(حروف الجر):"وجرُّ الظاهرِ بكاف التشبيه، وحتَّى، وواو القسم، وتائِه ـ كثيرٌ مستغنٍ عن التمثيل"[٣].

والمتلقي يستشعر قيمةَ التمثيل عند ابن مالك، وأنه لم يأتِ هكذا غفلا حين يقارن بينه وبين التمثيل عند نحويين آخرين قديما وحديثا؛ فإننا نقرأ أمثلة تخلو من أية قيم اجتماعية وتربوية؛ فمن الحديث نحو:" الدابة أذنها مخرومة. النائم متمدد في فراشه. انسلَّ الأولاد من الحجرة. الفتاتان مصابتان بالصداع. ساقا عليٍّ متورمتان. قدما سليمٍ مجروحتان. أسماء تشكو من زُكام. الممرات ضيقة جدًّا. الإناء ملأته الفتاة ماء. سرح قطيع الغنم في الخلاء"[٤].

---

(١) هو الإمام اللغوي المحدِّث أبو عبد الله شمس الدين محمد بن الطيب الفاسي (١١١٠ ـ ١١٧٠هـ). تنظر ترجمته في: سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ـ فاس ١٣١٦هـ؛ ص ١٣٥.

(٢) ينظر: فيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح؛ المؤلف: الإمام اللغوي المحدِّث أبو عبد الله محمد بن الطيب الفاسي (١١١٠ ـ ١١٧٠هـ)، تحقيق: محمود بن يوسف فجال ـ دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ـ دبي ـ الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م؛ ٤٩١/١.

(٣) ينظر: عمدة الحافظ وعدة اللافظ ٢٦٤/١.

(٤) ينظر: الأمثلة التوضيحية في ألفية ابن مالك " دراسة في النحو والمعنى ". بحث للدكتور: جميل علي محمد عرابي ـ مجلة كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة؛ ص٧. [أمتلك نسخة مصوَّرة من البحث من دون تاريخ للعدد أو رقْم].

ومن القديم" يقول ابن عقيل شارحا قول ابن مالك في باب المفعول المطلق:

كذاك ذو التشبيهِ بعد جملةْ ... كـ (لي بُكًا بكاءَ ذاتِ عُضْلةْ)

أي: كذلك يجب حذف عامل المصدر إذا قصد به التشبيه بعد جملة مشتملة على فاعل المصدر في المعنى؛ نحو: لِزيدٍ صوتٌ صوتَ حمارٍ"[(١)] وشتان بين مثالي الألفية والشرح. وفي هذا المثال غَناء عن ذكر أمثلة أخرى.

لتلك الخصائص وغيرها كانت الأمثلة النحوية عند ابن مالك تستحق النظر والتحليل، والبحث عن رمزية الاجتماعية فيها؛ عسى أنْ تُفْتَح للنحو أبوابٌ أُخَرُ من البحث، تكون هذه الورقة نواةً لها مع ورقةٍ أخرى سابقةٍ عليها تحت عنوان: الأمثلة التوضيحية في ألفية ابن مالك "دراسة في النحو والمعنى"[(٢)].

والفرق بين الدراستين واضح؛ فالدراسة السابقة مقصورة على أمثلة الألفية، توضح معانيَها بشكل عام، وأما الدراسة التي بين أيدينا فهي تحاول أن تجوب جُلَّ مؤلفات ابن مالك النحوية نظما ونثرا، صابَّةً جهدها على المرجعية الاجتماعية فقط ورمزيتها في تلك الأمثلة؛ فبين الدراستين عموم وخصوص من وجه؛ إذ إن الدراسة الأولى أعم من ناحية البحث في معاني الأمثلة؛ فهي لا تقتصر على مرجعية أو رمزية بعينها، وأخص من ناحية قصرها على الأمثلة المنظومة في الألفية فقط؛ مما حَرَمَها براعةَ ابن مالك في الأمثلة النثرية وخصائصها التي أشرت إليها سابقا، وأما الورقة التي معنا فهي أَعَمُّ من ناحية

---

(١) ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك؛ المؤلف : ابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (المتوفى : ٧٦٩هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الناشر : دار التراث ـ القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه ـ الطبعة : العشرون ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م؛ ٢/ ١٨٣/٢، والأمثلة التوضيحية في ألفية ابن مالك " دراسة في النحو والمعنى"؛ ص٨.

(٢) هذا البحث للأستاذ الدكتور/ جميل علي محمد عرابي؛ أستاذ النحو والصرف والعروض في كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة، وقد أشرت إليه في الحاشية (٣٠).

تناول التمثيل النحوي عند ابن مالك في جميع مؤلفاته النحوية ـ قدر المتاح ـ، وأَخَصُّ من ناحية اقتصارها على مرجعية بعينها في البحث حول المعنى، ولصاحب الدراسة الأولى ـ حفظه الله ـ فَضْلُ السَّبق على كل حالٍ، كما أني فِدْتُ منه.

وَهْوَ بسَبْقٍ حائزٌ تفضيلا ... مُسْتَوْجِبٌ ثنائِيَ الجميلا
واللهُ يَقْضِي بهباتٍ وافرةْ ... لي ولهُ في درجاتِ الآخرةْ (١).

(١) البيتان السادس والسابع من متن ألفية ابن مالك، وهو يعترف بفضل السبق لابن معطٍ داعيا لنفسه وله ـ رحمهما الله ـ: متن ألفية ابن مالك، ص١.

الآثار الاجتماعية التواصلية مع المتلقين في تمثيل ابن مالك

بعد النظر والتأمل في جُلِّ التمثيل النحوي عند العلامة ابن مالك ـ رحمه الله ـ رأيت تقسيم الأمثلة تبعًا لما تضمنته من أثر تواصلي مبني على المرجعية الاجتماعية إلى مجموعة من الآثار تمثلت في الآتي:

الأثر التواصلي الأول ـ معالم البيئة الاجتماعية التي عاشها ابن مالك:

ابن مالك وُلد ونشأ في مدينة جيّان الأندلسية، ثم انتقل إلى المشرق ـ القاهرة، ودمشق، وحلب، وحماة ـ وغيرها[1]؛ وما من شكٍّ أن هذه البلدان تحمل تحمل معالم بيئية اجتماعية مختلفة، وقد أثر ذلك في صاحبنا؛ مما جعله يذكر شيئا من هذه المعالم في تمثيله للقواعد النحوية؛ إذ يقول:

ـ في باب المفعول معه[2]: سِرْتُ والنِّيلَ. ما زِلْتُ أسيرُ والنيلَ.

ـ في باب التوكيد ـ ما يجري مجرى (كلّ) في التوكيد: مُطِرنا السَّهلُ والجبلُ والزرعُ والضرعُ[3].

(١) تنظر ترجمته مفصلة ـ رحمه الله ـ في: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة؛ المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الناشر: المكتبة العصرية ـ لبنان ـ صيدا ـ؛ ١/ ١٣٠وما بعدها، وغيره من مصادر التراجم والطبقات.

(٢) ينظر: شرح تسهيل الفوائد؛ المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون ـ الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ـ الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م) ٢/٢٤٨، ٢٥١، ٢٦١.

(٢) المصدر السابق ٣/٤٣٤ .

(٣) عمدة الحافظ ١/٥٥٦.

من خلال هذين المثالين ينقُلُنا ابن مالك إلى بعض معالم بيئته من سهلٍ وجبلٍ وزرعٍ وضرعٍ ونيلٍ، وما من شكٍّ أنه رأي النيل وشرب من مائه حين رَحَل إلى مصر التي توصف بأنها هبة النيل، أو أن النيل هبتها.

وابن مالك وإن لم يكن مصريًّا إلا أنه بهذا المثال الذي شاع في كتب النحو؛ كأنه يرمزُ إلى الدور الإعلامي الذي يمكن أن يقوم به النحويُّ ـ من حيث يدري أو لا يدري ـ في الترويج السياحي لمعالم مجتمعه الذي يعيش فيه، وربما لمعالم أمته إذا امتدّ الأمر ليشمل مناطق سياحية تاريخية لها أثر متفق عليه عند جموع الناس، كالحرمين الشريفين والقدس الشريف، وكيف يمكن للنحوي بأسلوب رقيق أن يربي النَّشْء على تقديس معالم أمته وتمجيدها وصيانتها والدعوة إليها.

والنحوي بشكل عامّ حين يمثّل للمتلقين من طلابٍ وقُرّاءٍ بمَعْلَمٍ بارز في مجتمعه؛ مِثْل النيل ـ مَثَلًا ـ فإنه يرسل رسالتين:

أولاهما ـ تمجيد قيمة هذا الأثر في نفوس شعبه، وصيانته والمحافظة عليه.

ثانيتهما ـ الإعلان عن هذا الأثر مزارا سياحيًّا لمتلقي التأليف النحوي؛ بدايةً لأبناء قطره الذين لا يتمتعون بثقافة سياحية، أو يعيشون في بيئات مغلقة لا تهتم بالمعالم السياحية لسبب أو لآخر، ثم نهايةً لكل من هم خارج قطره؛ وحينئذ يتحول النحويُّ إلى داعية أمين أو إعلاميٍّ صادق يُعْلِمُ الناسَ في كل قطر يصل إليه مؤلَّفُه بما يستحقون مشاهدته وزيارته في بلده.

وما من شكٍّ أنّ كل نحويٍّ سيمثِّل بما هو بارز في مجتمعه لا في مجتمع غيره؛ فمثلا: المصري والسوداني يمثِّلان بالنيل، والعراقيّ يمثّل بالفرات، والمغربيّ يمثّل بمدينة فاس وغيرها، والسعودي يمثل بمكة والمدينة وما فيهما من آثار دينية تمس قلوبَ المسلمين في جميع أنحاء الدنيا، ... إلخ.

بل إن أحدنا إذا سافر للعمل في أي قطر من الأقطار فإنه يغير من أمثلته لينقل إلى قاعة الدرس أمثلة تناسب ثقافة أبناء ذلك القطر، وتركّز على معالم بيئته.

وهذا نوع دقيق عميق من التواصل بين النحويّ والمتلقي، يرسخ القاعدة النحوية، وينشر ثقافة الإحاطة بالمعالم المجتمعية.

وهاتان الرسالتان اللتان يرسلهما النحوي بتمثيله يأتي قبلهما ما يحمله هو ذاته من معانٍ وذكريات لتلك المعالم التي يمثّل بها؛ وإلا فإنه يختار معلما دون آخر ليمثل به لقواعده وأحكامه.

الأثر التواصلي الثاني ــ الدعوة إلى الزواج والعفة والصلاح والاستقرار:

وقد جاء ابن مالك بأمثلة عجيبة في هذا الجانب؛ ومن ذلك قوله:

ـ في علامة رفع الأسماء الستة: أعجبني فوه، وكلمني أبوه وأخوه، وحمو المرأة المُحصَنِ هنوها(١).

ولا يفوته هنا أن يبين للمتلقي معنى (الحمُ) فيقول:" والحمُ: واحد الأحماء، وهم أقارب الزوج"(٢).

ـ في تقديم الخبر على المبتدإ: مسكينٌ رجلٌ لا زوجَ له. ويزيد ابن مالك الأمر وضوحا حتى يبين المقصود من المثال في المعنى؛ فيقول:" رجل: مبتدأ، ومسكين: خبر مقدَّم؛ إذ ليس المراد الإخبار عن المسكين بأنه رجل لا زوج له، بل المراد الإخبار بأن من لا زوج له مسكين؛ فظهور هذا المعنى قرينة صَرَفَتْ عن جعل النكرة المتأخرة خبرًا إلى جعلها مبتدأً"(٣).

---

(١) عمدة الحافظ ١/١٢٤.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق ١/١٦٩.

ـ في النعت السببي: مررت برجل راغبٍ فيه زيدٌ، وبامرأة كاذبٍ من يَعيبُها[١].

ويقول في باب الخبر: زيدٌ غلامُه صالحٌ[٢].

وفي باب النعت: مررت بالمرأة الصالحة وبالنساء الصالحات[٣].

ويقول أيضا: مررتُ برجلٍ صالحٍ أبناؤه، وصلحاءَ أبناؤه[٤].

هذه الأمثلة المذكورة تحمل دعوة للمتلقين جميعا إلى البحث عن الزواج والعفة والاستقرار الأسري والعائلي، الذي ينتج عنه الصلاح والإصلاح في المجتمع. وابن مالك هنا يرصد ظاهرة اجتماعية إنسانية، تشمل البشر جميعا على اختلاف ألوانهم وألسنتهم؛ فالإنسان غير المتزوج ـ رجلا وامرأة ـ يفتقد الاستقرار النفسي، وقد يجنح به الشيطان إلى ارتكاب الفاحشة لسدِّ متطلبات غريزته؛ ففي السكن والعفة والمودة والرحمة؛ يقول خالقُ البشر وطبائعهم ـ سبحانه وتعالى ـ: "**وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً**"[٥]. "**هُنَّ لِباسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِباسٌ لَهُنَّ**"[٦].

فـ "الناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين، وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة، ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجا، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر، وجعلت في تلك الصلة سكنا للنفس والعصب، وراحة للجسم

(١) عمدة الحافظ١/٥٣٩.

(٢) عمدة الحافظ١/١٦٣.

(٣) السابق١/٥٣٩.

(٤) السابق١/٥٤٠.

(٥) سورة الروم: الآية ٢١.

(٦) سورة البقرة: من الآية ١٨٧.

والقلب، واستقرارا للحياة والمعاش، وأُنْسًا للأرواح والضمائر، واطمئنانا للرجل والمرأة على السواء"[١].

إن العلامة ابن مالك ـ رحمه الله ـ يدعو في تمثيله النحوي إلى استقرار المجتمع الذي يبدأ من استقرار الفرد وتكوين الأسرة؛ إذ "الأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولى حماية الفراخ الناشئة ورعايتها وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها، وفي ظله تتلقى مشاعر الحب والرحمة والتكافل، وتنطبع بالطابع الذي يلازمها مدى الحياة وعلى هديه ونوره تتفتح للحياة، وتفسر الحياة، وتتعامل مع الحياة"[٢].

الأثر التواصلي الثالث ـ الحثُّ على الكرم، والمعروف، والتزاور، والتكافل، وتَجَنُّب البخل:

أكثرَ ابنُ مالكٍ إكثارًا واضحًا في تمثيله من الحديث عن الكرم والبخل والمال، ناثرًا ذلك في أبواب نحوية متفرقة؛ ومن ذلك قوله:

ـ في باب الموصول: جاء الذي كَرُمَ أبوه[٣].

ـ في تقديم الخبر على المبتدإ: عندك مالٌ ينفع الناس[٤].

ـ في باب ظنَّ وأخواتها: ظنَنْتُ زيدًا كريمًا، وخِلْتُهُ يُكْرِمُ الزائرَ[٥].

ـ ويقول في هذا التمثيل العجيب لعلامات إعراب اسم (لا) النافية للجنس:" لا أحدَ أَخْيَبُ ممنْ لا يَدَيْنِ له بالمعروف، ولا حامدينَ له، ولا حامداتٍ"[٦].

---

(١) ينظر: في ظلال القرآن؛ المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ) ـ الناشر: دار الشروق ـ بيروت ـ القاهرة ـ الطبعة: السابعة عشرة ١٤١٢هـ؛ ٢٧٦٣/٥ .

(٢) في ظلال القرآن ٢٣٥/١.

(٣) عمدة الحافظ ١٤٧/١.

(٤) السابق ١٧١/١.

(٥) السابق ٢٤٥/١.

(٦) المصدر السابق ٢٥٤/١، ٢٥٥.

ـ وفي النداء: يا رجلًا كريمًا، أقبلْ[١].

ـ وفي إعراب الفعل المضارع: ليتَ لي مالًا أحسنْ به[٢].

ـ وفي باب المفعول له: قصدْتُك للطمع في برِّك[٣].

ـ وفي إقحام اللام بين المضاف والمضاف إليه:لا أخا للمُقَتِّر[٤].

ـ وفي التعاقب بين (في ومِن) في المعنى والاستخدام: في بني فلانٍ كرماءُ، ومن بني فلان كرماء[٥].

ويقول في الألفية[٦] ـ باب نعم وبئس ـ:

فعلانِ غيرُ متصرّفينِ ... نعم وبئس رافعان اسمينِ

مقارني (أل) أو مضافينِ لما ... قارنها كـــ "نعم عقبى الكُرَما"

ويقول في إعراب الفعل المضارع: أينَ بيتُك أزرْكَ[٧]. إن زرتني أكرمُك[٨].

وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة كثرةً لا تخطئها عين المتلقي مؤلفاتِ ابن مالك نظما ونثرا؛ مما يجعلنا نحاول البحث وراء السرِّ من هذه الكثرة الطاغية، وهل هناك معانٍ يريد أن ينشرها العلامة ابن مالك ـ رحمه الله ـ في المجتمع من خلال تلك الأمثلة التي ذكرت منها غيضا من فيضٍ؟ وهل هناك سببٌ نفسيٌّ عند ابن مالك يدعوه إلى التكثير من الأمثلة الحاسة على الكرم والتزاور والتكافل والإنفاق وتجنب البخل؟!

---

(١) المصدر السابق ١/٢٧٨ .

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٤٥. وقد جُزِمَ الفعل (أُحسِنْ) على تقدير الشرط؛ أي: إن ملكتُ مالا أُحسِنْ إليك.

(٣) المصدر السابق ١/ ٣٩٨.

(٤) المصدر السابق ١/ ٤٨٨.

(٥) المصدر السابق ١/ ٥٤٨.

(٦) عمدة الحافظ١/٣٤٥.

(٧) المصدر السابق ١/ ٣٥٣. وقد جاز رفعُ جواب الشرط؛ لأن الشرط ماضٍ.

(٨) المصدر السابق ١/ ٥٤٨.

مما لا ريب فيه أن الكرمَ والبخلَ خُلُقانِ يؤثّران على أي مجتمع من المجتمعات إيجابا وسلبا؛ فالمجتمع الذي يسوده الكرم والبذل والعطاء والسخاء بين أفراده لهو مجتمع متحابٌّ ودود، لا غلَّ فيه ولا حقدَ بين أفراده وطبقاته؛ فالغنيُّ يعطي الفقير مما أعطاه الله بأمر الله طامعا في رضا الله، واضعا أمام عينيه قوله ـ تعالى ـ:" **وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**"(١)، وقولَ النبيّ ـ صلى الله عليه وسلَّم ـ:" مَا مِنْ يَوْمٍ يُصْبِحُ الْعِبَادُ فِيهِ إِلَّا مَلَكَانِ يَنْزِلَانِ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا: اللهُمَّ، أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَيَقُولُ الْآخَرُ: اللهُمَّ، أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا"(٢)، وغيرهما من الآيات الكثيرة والأحاديث الغفيرة التي تُرَغِّبُ في الكرم والعطاء، وتُرَغِّبُ عن البخل والإمساك.

وعلى العكس من ذلك المجتمعات التي يسودها البخل والشح؛ فإن أبناءها يتحاسدون ويتناحرون ويتقاتلون، ويسكنهم الحقد والضغينة والكراهية.

إذن قد تحوَّل ابن مالك ـ هنا ـ من معلمٍ شارح للنحو إلى داعية إلى البر والخير والتكافل والكرم والعطاء، معتليا منبر النحو، متخذا إياه إلى الدعوة سبيلا.

هذا بالنسبة للقيمة الاجتماعية التي ترمز إليها تلك الأمثلة وما على شاكلتها عند ابن مالك؛ مما لو ذكرتُه إحصاءً، لما كفَتْنِي صحائفُ هذا البحث، وأما بالنسبة للسبب النفسي فإنني أرى أن الحياة الفقيرة التي عاشها ابن مالك جعلته يُنَفِّسُ عن حاجته في أمثلته؛ ولا غرو فقد رَوَتْ المصادر أنه ـ رحمه الله ـ قد بعث بكتابٍ إلى السلطان بيبرس يستدرُّ عطفَه؛ قال السيوطي ـ رحمه الله ـ:" نقلت من خط شيخنا الإمام تقي الدين الشمني؛ قال: نقلت من خط الشيخ كمال الدين الدميري، نقل من خط الشيخ جمال الدين بن هشام، قال: من

(١) سورة آل عمران: من الآية ١٨٠.

(٢) متفق عليه: البخاري؛ حديث رقم ١٤٤٢، ومسلم؛ حديث رقم ١٠١٠.

غريب ما رأيت على كراريس من تسهيل الفوائد بخط الشيخ جمال الدين بن مالك، في أواخرها صورة رفعها الفقير إلى رحمة ربه محمد بن مالك: يقبل الأرض، وينهى إلى السلطان أيد الله جنوده وأيد سعوده، أنه أعرف أهل زمانه بعلوم القراءات والنحو واللغة وفنون الآداب. وأمله أن يعينه نفوذ من سيد السلاطين، ومبيد الشياطين، خلَّد الله مُلْكَه، وجعل المشارق والمغارب مِلْكَه، على ما هو بصدده من إفادة المستفيدين، وإفادة المسترشدين؛ بصدقةٍ تكفيه هَمَّ عياله، وتُغْنيه عن التسبُّب في صلاح حاله"(١).

ومع هذه الفاقة التي كان يمر بها ابن مالك ـ رحمه الله ـ إلا أنه كان "سخيًّا، حسنَ الخُلُقِ، أديبًا، ديّنًا"؛ ولا عجب فالسخاء والفقر لا يتعارضان؛ إذ السخاء والكرم من طباع النفس ولو كانت فقيرة إلى عوارض الدنيا، وكذلك البخل والشح والإمساك من طباعها ولو أُوتيتْ"مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوْءُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي القُوَّةِ"(٢).

إذن السرُّ النفسي وراء إشاعة تلك الأمثلة عند ابن مالك؛ هو طبعه الكريم؛ فكأنه يريد جميع الناس كراما، وكذلك الفاقة التي عاشها وأحوجته إلى الطلب من السلطان؛ مما جعله يُحِسُّ بأحوال المحتاجين ويتفاعل معها، رامزًا إلى أهل الخير والمال والعطاء أن يكونوا كراما مع غيرهم؛ يقول في الألفية(٣):

وَمِثْلُ (كانَ) (دامَ) مسبوقاً بـ (ما) ... كأعطِ ما دُمْتَ مُصِيبًا درهما

(١) ينظر: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة؛ المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر : دار إحياء الكتب العربية ــ عيسى البابي الحلبي وشركاه ــ مصر الطبعة: الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م؛ ٩٦/١.

(٢) سورة القصص: من الآية٧٦.

(٣) سورة آل عمران: من الآية ١٨٠.

الأثر التواصلي الرابع ـ عادات اجتماعية في الأكل، واللُّبس:

ينقلنا ابن مالك في هذا الأثر التواصلي الاجتماعي إلى صورة أخرى من مجتمعه الذي عاش فيه؛ إذ يحدثنا عن بعض مظاهر الحياة في ذلك المجتمع من عادات تتعلق بالأكل، واللُّبس؛ يقول:

ـ في باب الحال[١]: تَمْرُنا بُسرًا[٢] أطيبُ منه رُطَبًا . حَمْلُ[٣] نخلتِنا بُسْرا أطيبُ منه رُطَبا.

ـ في باب الإضافة المقدَّرة بـ (مِنْ): الخاتمُ فضةٌ، والسِّوارُ ذهبٌ، والحبَّةُ مسكٌ، والجُبّةُ خَزٌّ[٤].

ـ في إضافة العدد إلى جمع الكثرة[٥]: صِدْتُ ثلاثةَ ثعالبَ، وثلاثةَ أرانبَ، وشوَيْتُ ثلاثةَ قلوبٍ، وأرَقْتُ ثلاثةَ دماء.

ويقول أيضا[٦]: اشتريتُ ثلاثًا من البطِّ، وخمسًا من الدجاج. عندي ثلاثة من البقر وثلاث من البقر. عندي ثلاثة ذكورٍ من البط.

ويعقِّب ـ رحمه الله ـ على ذلك بقوله:" وتُعطَى التاء من الثبوت والحذف ما يقتضيه لفظُ المعدود دون التفات إلى لفظ واحد، فإن كان مؤنثا حَذَفْتَ التاء، وإن كان مذكرا أثبتَّها، وإن كان ذا وجهينِ خُيِّرْتَ في الاستعمالين"[٧].

ومن العجيب الذي يَلفِتُ النظرَ، ويستدعي الملاحظة في الأمثلة السابقة أن ابن مالك واعٍ لما يقول، وللرسالة التي يوصلها للمتلقين من خلال أمثلته؛ فقد

---

(١) ينظر: شرح التسهيل؛ لابن مالك ٢/٣٤٤،٣٤٥.

(٢) البُسْرُ من التَّمْر قبلَ أن يُرْطِبَ، والواحدة بُسرةٌ، وأبْسَرَ النَّخْل صارَ بُسْرًا بعدَ ما كان بَلَحًا. ينظر: معجم العين ٧/٢٥٠.

(٣) جاء في العين ٨/١١٩:" والتَّمْرُ حَمْلُ النخلةِ ".

(٤) ينظر: عمدة الحافظ ١/٤٨٢.

(٥) المصدر السابق ١/٥١٨.

(٦) المصدر السابق ١/٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣.

(٧) المصدر السابق ١/ ٥٢٣.

قال:" الخاتمُ فضةٌ، والسّوار ذهبٌ "، وفي هذا إشارة إلى المجتمعات المعتدلة المحافظة؛ إذ إنّ الخاتم هنا للرجل، والسّوار لا يكون إلا للمرأة؛ قال صاحب شمس العلوم:" السِّوارُ للمرأة: معروف، وفي المَثَل: لو ذاتُ سِوارٍ لَطَمَتْنِي"(١). ومن ناحية أخرى كأن ابن مالك يشير إلى بعض أفراد في المجتمع يخالفون الشرعَ بل يخالفون الطبيعة البشرية؛ فالمرأة ناعمة بفطرتها وطبعها؛ فيناسبها من الحليّ الذهبُ، والرجل تناسبه الفضة، ومن الرجال من يخالف هذه الطبيعة، ويتحلّى بالذهب، ومن المعلوم أن الشرع الحنيف قد نهى عن تشَبُّه الرجال بالنساء والعكس، فضلا عن الأثر السيّءِ الذي ينتشر في المجتمعات جرَّاء التخنُّس والميوعة.

الأثر التواصلي الخامس ـ احترام المواعيد، واستغلال الوقت:

ـ يقول في باب المفعول له: جئتُكَ الساعةَ لوعدي إياك أمس(٢).

ويقول في باب المفعول فيه : سهرتُ البارحةَ إلى غُدْوَةَ وإلى بُكْرَةَ(٣).

ويقول في الموضع ذاته: ما من بُكْرَةٍ أفضلَ من بكرةِ يومِ الجمعة، وكلُّ غُدْوَةٍ يُسْتَحَبُّ فيها الاستغفارُ.

ويقول أيضا: انتظرتُه ترويحتَيْنِ، وقراءةَ جزأينِ، ونَحْرَ جزورَيْنِ.

ويقول في باب الإضافة(٤): ومثلُ ذا مع اسمِ مفعولٍ وَرَدْ ... كـ"مخلِفُ"الوعدِ مُحَقَّ ذو نكَدْ.

ويشرح قائلا: أي: مخلفٌ مُحَقَّ الوعدِ ذو نكد، والمُحَقُّ: صاحب الحقّ.

---

(١) ينظر: شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم؛ المؤلف: نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (المتوفى: ٥٧٣هـ)، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله ـ الناشر: دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية)، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م؛ ٣٢٦٨/٥.

(٢) ينظر: عمدة الحافظ ٣٩٦/١.

(٣) المصدر السابق ٤١٥/١.

(٤) ينظر: شرح الكافية الشافية؛ لابن مالك؛ ٩٨٨/٢.

فابن مالك يرسل لمتلقيه رسائل عاليةَ المغزى، هادفةَ المرمى، فالمجتمعات المتقدمة من سماتها الكبرى التي بها تُعرَف وتُحترَم وتُقدَّر ـ احترام الموعد، واستغلال الوقت، وقد قال النبيُّ ـ ﷺ ـ:"نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ وَالفَرَاغُ"(١). كما وجَّه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى اغتنام الفراغ قبل الشغل(٢).

وفي حديث آخر جعل ـ ﷺ ـ إخلاف الوعد أمارة من أمارات النفاق؛ فقال ـ ﷺ ـ: " آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ"(٣).

ـ ومن أَسَفٍ ـ أنه كلما سافر أحدنا نحن العربَ والمسلمين إلى بلدٍ أوروبي؛ فإنه بعد عودته لا يسلو الحديث عن أولئك الأوروبيين الذين يحافظون على المواعيد بالثانية والدقيقة، وأوقاتهم كلها مشغولة بالعمل.

مع أن هذا خُلُقٌ نحن به مأمورون، وعن مخالفته منهيُّون، ولم يتوقف الأمر عند الهدي النبوي الشريف، وإنما انتقل إلى الأمثلة النحوية الواعية عند نحويٍّ عبقريٍّ؛ ولنتأملْ قوله ـ رحمه الله ـ مستدركا على تمثيله بقوله: "سهرتُ البارحةَ إلى غُدْوَةَ وإلى بُكْرَةَ" قائلا: "ما من بُكْرَةٍ أفضلَ من بكرةِ يومِ الجمعة، وكلُّ غُدْوَةٍ يُسْتَحَبُّ فيها الاستغفارُ"؛ فكأن ابن مالك يحترس بهذا عن إطلاق

(١) صحيح البخاري؛ حديث رقم ٦٤١٢.

(٢) قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِرَجُلٍ وَهُوَ يَعِظُهُ: " اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ". السنن الكبرى؛ المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ) حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت ـ الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م؛ ٤٠٠/١٠ حديث رقم ١١٨٣٢. وغيره من كتب السنة.

(٣) متفق عليه: صحيح البخاري؛ حديث رقم ٣٣، وصحيح مسلم؛ حديث رقم ٥٩.

السهر؛ فالسهر لا يكون مرغوبا فيه إلا إذا سلَّمكَ إلى بُكْرةِ الجمعة؛ مصليًا الفجر، منتظرا في مصلّاك حتى تصلّي الضحى، قارئا قبل ذلك أو بعده سورة الكهف.

ثم يقول ـ رحمه الله ـ: كلُّ غُدْوَةٍ يُسْتَحَبُّ فيها الاستغفارُ؛ مشيرا إلى بدء اليوم بالاستغفار الذي يجلب الرزق، والمال، والولد؛ كما فُهِم من قوله ـ ﷻ ـ: "**فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢)**"[(١)].

فما أسعدَ مجتمعًا ينجح في تلقي هذه الإشارات، وفي استقبال تلك الفتوحات.

ثم إن ابن مالك كأنه يعيش بيننا الآن، ويتفقَّد مجتمعاتنا التي انتشر في مداخلها، ومخارجها، وعياداتها، ومصالحها، ومحلاتها التجارية، ونغمات جوّالاتها، ... انتشر فيها قولنا أو تعليقنا أو لوحةٌ مكتوب عليها:" املأْ لحظاتِ الانتظار بكثرة الاستغفار "؛ نعم يعيش معنا العلامة ابن مالك حين يقول لنا في تمثيله: انتظرتُه قراءةَ جزأين.

الأثر التواصلي السادس ـ التمثيل بأيام الأسبوع وبعض العادات الاجتماعية فيها:

المُراجع لمؤلفات ابن مالك وأمثلته فيها ـ يجده كثيرا ما يمثِّل بأيام الأسبوع ـ أيام الأسبوع كلها ـ في أبواب نحوية مختلفة، ولكني اخترتُ هذه الطائفة من الأمثلة التي ترسل لنا نحن المتلقين إشارات اجتماعية عبر تاريخ جاوز السبعَمِائة سنة ـ منذ وفاة ابن مالك ـ رحمه الله ـ؛ لذا اقتصرت على ذكر الخميس والجمعة.

يقول في باب المبتدإ[(٢)]: الزيارةُ يومُ الجمعة.

---

(١) سورة نوح: الآيات من ١٠ ـ ١٢.

(٢) شرح التسهيل ١/٣٢١.

وفي باب حروف الجر[١]: ما رأيتُه مُذْ يومِ الجمعة.

وفي باب الاستثناء[٢]: صُمْتُ إلا يومَ الجمعة.

وفي باب عطف النَّسَق[٣]: صمتُ الأيامَ حتى يومَ الجمعة.

وفي باب (كان وأخواتها) [٤]: كان يومَ الجمعة زيدٌ معتكفًا.

وفي باب الحال[٥]: اعتكفتُ يومَ الجمعة.

وفي باب المفعول فيه[٦]: صمتُ يوم الخميس واعتكفتُ يوم الجمعة.

ومن الرسائل التي يقرأها البحث في هذه الأمثلة رسالتان:

الأولى ـ يعبر لنا ابن مالك في المثالين الأول والثاني عن عادة اجتماعية تقول: إن الناس كانوا يتزاورون يوم الجمعة، وهذا أمر عجيب؛ إذ إننا في زماننا هذا نفعل ذلك؛ لأن الراحة الأسبوعية من الأشغال والأعمال في أغلبها يوم الجمعة؛ فالناس يستعدون لأداء الصلاة ثم الزيارات والاستضافات، وكأن الزمان لم يتغيَّر، ولعلَّ ذلك متجذِّرٌ في مجتمعاتنا بفضل الدعوة الصادقة وانتشارها؛ فالدعاة نشروا بين الناس حديث النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ:" أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ، وَالسَّبْتَ، وَالْأَحَدَ، وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ"[٧].

---

(١) السابق ٨١٤/٢.

(٢) السابق ٢٧٠/٢.

(٣) السابق ٣٥٨/٣ .

(٤) شرح الكافية الشافية ٤٠٥/١.

(٥) شرح التسهيل ٢/ ٣٢٦.

(٦) شرح الكافية الشافية ٦٧٦/٢.

(٧) صحيح مسلم؛ حديث رقم ٨٥٦.

الثانية ـ يرسل لنا ابن مالك من وراء سبعمائة سنة وزيادة رسالةً اجتماعيةً مكتسبةً من الشرع الحنيف؛ إذ إن يوم الجمعة يُعَدُّ عيدا أسبوعيًّا للمسلمين؛ وقد نُهِي(١) عن الصيام فيه، ولكن يُسَنُّ يوم الخميس، ويعوض يوم الجمعة بالاعتكاف لمن يراه فرصةً لذلك.

الأثر التواصلي السابع ـ رفع الروح المعنوية للمخاطَب وتقديم النصيحة:

يقول في تقديم الخبر: فيك نجابةٌ ظاهرةٌ(٢).

وفي باب الفاعل: رأيت رجلا فيه خير(٣).

وفي باب (إنَّ): عرفتُ أنَّك بَرٌّ(٤).

وفي باب التمييز: قلبُه ممتلئٌ إيمانًا، ومن إيمان(٥).

ويقول في باب الحال: واللهِ لأَعِظُك ناصحًا. والله لَأَعِظَنَّك ناصحًا(٦).

ويقول أيضا: ما كنتُ لأَدعَك خَائِبًا.

في هذه الأمثلة يُعْلِي ابن مالك من شأن رفع الروح المعنوية لأفراد المجتمع الذين يخاطبهم، ويبعث لنا بالرسالة ذاتها نحن المتلقين، وما أحوجنا إلى هذا الخلق الرفيع في تعاملاتنا اليوم؛ حتى يسود الحبُّ والمودة والاحترام، وما أحوج مجتمعاتنا المتمزقة أشلاء " كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ"(٧) إلى رفع

(١) في صحيح البخاري؛ الحديث رقم ٢٩٨٤:" حَدَّثَنَا أَبُو عَاصِمٍ، عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ، عَنْ عَبْدِ الحَمِيدِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ شَيْبَةَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادٍ، قَالَ: سَأَلْتُ جَابِرًا ﷺ: نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الجُمُعَةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، زَادَ غَيْرُ أَبِي عَاصِمٍ، يَعْنِي: أَنْ يَنْفَرِدَ بِصَوْمٍ".

(٢) عمدة الحافظ ١/١٧١.

(٣) السابق ١/١٨٢.

(٤) عمدة الحافظ ١/٢١٩.

(٥) السابق ١/٤٧١.

(٦) عمدة الحافظ ١/٤٣٣.

(٧) سورة الروم: من الآية ٣٢.

الروح المعنوية للأفراد ولو بالكلمة الطيبة؛ فهي صدقة[١]، فضلا عن أن لها فِعْلَ السحر في استرضاء النفوس.

ثم إن ابن مالك يحثُّ المتلقين على التناصح والتواصي بالحق؛ فهو من صفات المؤمنين الناجين من الخسران؛ تصديقا لقوله ـ عز وجل ـ في سورة العصر:" **وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)**".

وليتنا نتناصح ونتواصى بالحق في هذا الزمان الذي انقلب فيه الباطل حقًّا؛ بسبب انقلاب الناس على قبول النصيحة من المخلصين الصادقين.

الأثر التواصلي الثامن ـ نقد مظاهر اجتماعية سيئة:

ويندرج تحت هذا الأثر أمثلة متنوعة مختلفة المعاني إلا أن الجامع بينها هو انتقادها وعدم قبولها؛ يقول ـ رحمه الله ـ:

في حذف الفعل وجوبا: إيّاك والشرّ![٢]

وفي (لا) النافية للجنس: لا قبيحًا فعله محبوب[٣].

وفي باب المفعول معه: ما لِزيدٍ والعربَ يسُبُّها![٤]

ويقول أيضا: ما شأنُ عمرٍو والبُرَّ يَسْرِقُه!

وفي باب الإضافة: يا بؤسَ للحربِ؛ أي: يا بؤسَ الحربِ!

ما من شكٍّ أن هذه الأمثلة كلَّها انتقادية لطباعٍ وأحداثٍ تؤذي المجتمعات ساكنيها، ومرافقَها، ومقوّماتِها؛ فالشرّ ضدُّ الخير، وإذا كان الخير هو طريقَ النجاة لأيّ مجتمع؛ فإن الشر هو طريق الهلكة له، والقبح شرٌّ في الفعل

(١) جاء في الحديث:" وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ"؛ متفق عليه: البخاري؛ حديث رقم ٢٩٨٩، ومسلم؛ حديث رقم ١٠٠٩.

(٢) عمدة الحافظ١/١٩٣.

(٣) المصدر السابق ١/ ٢٥٧.

(٤) المصدر السابق ١/ ٤٠٨.

والقول، وسببُ الأمم جهلٌ بالتاريخ ورسوب في الثقافة، والسرقة أول طرق الفساد العريض في المجتمعات، سواء أكانت سرقة مادية كالمثال المذكور، أم سرقةً معنويةً للحقوق والطموحات والعدل والمساواة...

وأما الحروب الباطلة التي يخترعها أهلها لمكاسب شخصية، لا دفاعًا عن قضايا حقيقية للأمة ـ كما نرى الآن ـ فيا بؤسَها وبؤسَ من يشارك فيها.

وأخيرا أختم هذه الوقفات مع أثر المرجعية الاجتماعية في التواصل بين النحويين والمتلقين من خلال تمثيل ابن مالك ـ أختم بهذين المثالين اللذينِ كانا السبب المباشر في كتابة هذه الورقة؛ إذ إن رسالتي للماجستير كانت[١] في شرح كتاب التسهيل لابن مالك، وقد قرأت مما قرأتُ فيه هذين المثالين، وشَعَرتُ حينها أن ابن مالك يريد أن يقول عن مجتمعه شيئا من خلالهما:

في باب (كان) يقول :" ما زال العلمُ حسنًا، ولا يزال الجهلُ قبيحًا"[٢].

وفي باب (الاختصاص):" إنّا حملةَ القرآنِ أحقُّ الناس بمراعاة حقوقهم"[٣].

وقد ذكرتهما في إطار النقد للمجتمع؛ لأنني رأيت ابن مالك لا يمثِّل بذلك؛ ليخبر المتلقي بحقيقة العلم المعلومة، وكذلك حقيقة الجهل التي لا تخفى، وأيضا حقوق حَمَلَةِ القرآن التي لا تحتاج إلى جدال أو مثال، وإنما هو ينتقد مجتمعه الذي يُفَضِّلُ رويبضةَ القوم على أهل العلم والقرآن، وليس هذا عن حياتنا المعاصرةِ ببعيد.

وهكذا تواصل ابن مالك مع قرائه من خلال أمثلته التي تحمل إحساسًا عاليًا، ووعيًا مقصودا، وتُصَوِّرُ معالم بيئته؛ وتشكو بَثَّ الرجل وحزنه من تلك الأوضاع الاجتماعية التي لا تعجبه ـ إلى المتلقين؛ لعل أحدَهم يكون سببًا للتغيير.

---

(١) سنة٢٠٠٥م.

(٢) شرح التسهيل ٣٣/١.

(٣) السابق٤٣٤/٣.

الخاتمة ـ أسألُ اللّهَ حُسْنَها ـ

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات ... ؛ فهذه بعضُ النتائج التي خَلَصَ إليها البحث:

الأولى ـ يتَّسِمُ التمثيل النحويُّ عند ابن مالك ـ رحمه الله ـ بالسمات الآتية:

١ـ لم يَعِش ابن مالك في جلباب من سبقوه؛ إذ إنه ينوع في أسماء الأعلام التي يمثِّل بها خارجا عن دائرة: ضرب زيدٌ عمرًا، وقام زيدٌ، وقعد عمرٌو.

٢ ـ يقصد أمثلته قصدا ويعيها وعيا، ولا يكتبها هكذا غُفْلًا حسبما اتّفق.

٣ ـ يُذيِّلُ أمثلته أحيانا معلقًا بتفسير وتوضيح؛ حتى لا يحدث لبسٌ أو إيهام.

٤ـ ينحو في تمثيله للقاعدة النحوية أحيانا منحًى أشبهَ ما يكون بالقصة القصيرة جدًّا؛ فهو يقدِّم القاعدةَ بكل ما تحتويه من تقعيد؛ ثم يمثل لكل ذلك بمجموعة من الأمثلة المتوالية التي تكون معنًى متكاملا في النهاية.

٥ ـ يشير في بعض أمثلته إلى بعض طلابه وخاصّته.

٦ـ لا يمثل للقاعدة أحيانا؛ اعتمادا على شدة ظهورها وكثرة الاستخدام.

الثانية ـ ظهر للمرجعيَّة الاجتماعية أثر كبير في التمثيل النحوي عند ابن مالك؛ ومن ذلك الآتي:

١ ـ معالم البيئة الاجتماعية التي عاشها ابن مالك.

٢ـ الدعوة إلى الزواج والعفة والصلاح والاستقرار.

٣ـ الحثُّ على الكرم، والمعروف، والتزاور، والتكافل، وتَجَنُّب البخل.

٤ ـ عادات اجتماعية في الأكل، واللُّبس.

٥ ـ احترام المواعيد، واستغلال الوقت.

٦ ـ التمثيل بأيام الأسبوع وبعض العادات الاجتماعية فيها.

٧ ـ رفع الروح المعنوية للمخاطَب وتقديم النصيحة.

٨ ـ نقد مظاهر اجتماعية سيئة.

الثالثة ـ حاول البحث الوصول إلى ثواني المعاني والرمزية التي أراد ابن مالك أن يتواصل من خلالها مع قرائه ومتلقيه من خلال أمثلته التي تحمل إحساسًا عاليًا، ووعيًا فائقا بحياته ومجتمعه.

الرابعة ـ لم يطرح ابن مالك أمثلة اعتيادية لتوضيح القاعدة النحوية، ولكنه يتواصل مع القارئ في ضوء نسق خاص صنعه لنفسه؛ فأمثلته تتعدى القاعدة إلى نشر الوعي والفضيلة؛ فهو ـ من خلال أمثلته ـ شارح للنحو، داعية إلى الحق والعدل، ناقد للأوضاع الاجتماعية التي تُفَضِّلُ رويبضةَ القوم على أهل العلم.

الخامسة ـ من الممكن أن يتحول النحويُّ من خلال تمثيله إلى داعية أمين أو إعلاميٍّ صادق يُعَلِّمُ الناسَ الخيرَ في كل قطر يصل إليه مُؤَلَّفُه.

والحمد لله ربِّ العالمين!

ثَبَتُ المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.
٢ـ الأمثلة التوضيحية في ألفية ابن مالك " دراسة في النحو والمعنى ". بحث للدكتور: جميل علي محمد عرابي ـ مجلة كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة.
٣ـ بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة؛ المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم ـ الناشر: المكتبة العصرية ـ لبنان ـ صيدا ..
٤ـ تاريخ بغداد وذيوله؛ المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ) ـ الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ دراسة وتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا ـ الطبعة: الأولى ١٤١٧هـ.
٥ ـ تمهيد القواعد بشرح تسهيل الفوائد؛ المؤلف: محمد بن يوسف بن أحمد، محب الدين الحلبي ثم المصري، المعروف بناظر الجيش (المتوفى: ٧٧٨ هـ)، دراسة وتحقيق: أ. د. علي محمد فاخر وآخرين ـ الناشر: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة ـ جمهورية مصر العربية ـ الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.
٦ـ تهذيب اللغة؛ المؤلف: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب ـ الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
٧ـ حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة؛ المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الناشر : دار إحياء الكتب العربية ـ عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ مصر الطبعة: الأولى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

٨ ـ سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس؛ تأليف العلامة محمد بن جعفر بن إدريس الكتاني، طبع ضمن الموسوعة الكتانية لتاريخ فاس، بعناية حفيد المؤلف الشريف محمد حمزة بن علي الكتاني، طبع دار الثقافة سنة ٢٠٠٤م.

٩ـ السُّنَن الكبرى؛ المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ) حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت ـ الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

١٠ـ شرح تسهيل الفوائد؛ المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)، المحقق: د. عبد الرحمن السيد، د. محمد بدوي المختون ـ الناشر: هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان ـ الطبعة: الأولى (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م).

١١ـ شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك؛ المؤلف : ابن عقيل ، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري (المتوفى : ٧٦٩هـ)، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد ـ الناشر : دار التراث ـ القاهرة، دار مصر للطباعة ، سعيد جودة السحار وشركاه ـ الطبعة : العشرون ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

١٢ـ شرح الكافية الشافية؛ المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)، المحقق: عبد المنعم أحمد هريدي ـ الناشر: جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة ـ الطبعة الأولى.

١٣ـ شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم؛ المؤلف: نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (المتوفى: ٥٧٣هـ)، المحقق: د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله ـ الناشر: دار الفكر

المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية)، الطبعة: الأولى ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩م.

١٤ ـ صحيح البخاري؛ المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر ـ الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) ـ الطبعة: الأولى ١٤٢٢هـ.

١٥ ـ صحيح مسلم؛ المؤلف مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي ـ الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت ..

١٦ـ عمدة الحافظ وعُدَّة اللافظ؛ المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)، تحقيق/ عدنان عبد الرحمن الدوري ـ الناشر: مطبعة العاني ـ بغداد ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

١٧ـ فيض نشر الانشراح من روض طيّ الاقتراح؛ المؤلف: الإمام اللغوي المحدِّث أبو عبد الله محمد بن الطيب الفاسي (١١١٠ ـ ١١٧٠هـ)، تحقيق: محمود بن يوسف فجال ـ دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث ـ دبي ـ الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

١٨ـ في ظلال القرآن؛ المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ) ـ الناشر: دار الشروق ـ بيروت ـ القاهرة ـ الطبعة: السابعة عشرة ١٤١٢هـ.

١٩ـ كتاب العين؛ المؤلف: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي ـ الناشر: دار ومكتبة الهلال.

٢٠ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: ٦٨١هـ)، المحقق: إحسان عباس ـ الناشر: دار صادر ـ بيروت.